

السخرية في الأدب العربي

أ. طارق شعبان حمزة

جامعة الزاوية- كلية الآداب

المقدمة

السخرية في الأدب أسلوب يعتمد على التهكم لكشف أنماط مختلفة من السلوك الإنساني، حيث الأعمال الأدبية الساخرة منذ ملهارة أرسطوفانس، تسعى للاهتمام بالإنسان، محاولة رفعه عن الوضائع التي قد تلوته ولا تتفق مع القيم والمعايير الإنسانية. تناول البحث المفهوم العام للسخرية، وأساليبها المختلفة مثل الرد بالمثل واللعب بالألفاظ والمعاني، والهزل الذي يراد به الجد، والتبشير موضع الإنذار، والمبالغة، ثم السخرية ومزاح الأدياء والأعراب حول موضوعات عدة مثل العيوب الجسمية والنفسية.

السخرية في اللغة:

س خ ر (سَخِرَ) منه من باب طَرِبَ و (سَخِرَ) بضمين و(ومسخر) بوزن مذهب، وقال الأَخْفَشُ: سَخِرَ مِنْهُ وَبِهِ وَضَحَكَ مِنْهُ وَبِهِ وَهَزَى مِنْهُ وَبِهِ، و (السُّخْرِيُّ) بضم السين وكسرهما⁽¹⁾ وَقَرِيءٌ بِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرِيًّا﴾⁽²⁾، و (سَخِرَهُ) (تسخريرا) كلفه عملاً بلا أُجْرَةٍ، ورجل (سُخْرَةٌ) كسفرة يَسُخِرُ مِنْهُ⁽³⁾. وقال تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ لِمَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾⁽⁴⁾، وفي الحديث: أَسْخَرُ مَنْي وَأَنَا الْمَلِكُ، أَي أَسْتَهْزِئُ بِمَنْ يَسْخَرُ مِنِّي وَالسُّخْرَةُ: الضُّحْكَةُ، ورجل سُخْرَةٌ: يَسْخَرُ بِالنَّاسِ⁽⁵⁾.

المفهوم الأدبي العام للسخرية:

السخرية: الاستهزاء، والسخرية، والضحكة، وسخر منه وبه، وضحك منه وبه، وهزئ منه وبه، وسخره: سخر منه⁽⁶⁾، وهي نوع من الهُزء يكون في الإتيان بكلام يعني عكس ما يقصده المتكلم⁽⁷⁾.

ويعرفها صاحب كتاب الفكاهة والضحك "هي في الأصل شكلا من أكثر أشكال الفكاهة أهمية، والهدف منها مواجهة الوضع الراهن في الأخلاق والسياسة والسلوك والتفكير"⁽⁸⁾،

السخرية في الأدب العربي

وبالتالي هي من الأساليب المهمة لأنها تكون أسلوباً تكنيكياً عاماً للتفكك يفيد في كثير من الأساليب الأخرى مثل المبالغة والإهانة والتهكم والازدراء⁽⁹⁾.

فهذه اللفظة تعني الاستهزاء والضحك، وتكون أيضاً شكلاً من أشكال الفكاهة مفيد في أسلوب التهكم والازدراء.

وعرفها عبد الفتاح عوض بأنها نوع من أنواع الفكاهة والتهكم يثير على الهزل والضحك والتسلية⁽¹⁰⁾.

مما تقدم يمكن القول أن السخرية هي نوع أو شكل أو أسلوب من أساليب الفكاهة، ولاشك أن السخرية إذا قصد بها هذا النوع من الفكاهة المجردة كانت أشبه بالعبث والهزل، والأدب لا يكون هزلاً، وإذا وقفت السخرية عند حد التسلية الفارغة كمادة لشغل الوقت الضائع كانت مضیعة أكثر، والأدب من هذا النوع لا يثير اهتمام القراء والباحثين.

إننا نحس من الاستعمال للكلمة أنماطاً ظاهرة خفيفة الظل، فهي ترقى بالفكاهة إلى مستوى أكثر ذكاءً ولباقةً، فتجعل لها معنى، وتعطيها قدرة خاصة على أن يكون لها هدف، وأن تخدم هذا الهدف وتحتال لتحقيقه.

وبذلك يمكننا أن نتصور السخرية وهي تعني الضحك والاستهزاء والتهكم، وهو الاستخفاف بالشيء والعبث الكلامي والتصويري الذي يعتمد على العبارة البسيطة، أو على الصورة الكلامية مع التركيز على النقاط المثيرة فيها.

كما أنها كفكاهة هي أرقى أنواع الفكاهة تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والمكر⁽¹¹⁾. وللسخرية مجالات عديدة فهي تناولت الغفلة والتعاقل، والتناقض والتلاعب بالألفاظ، والتهكم بالعيوب الخلقية، والنفسية، والجسدية، والدعابة، والحدائق، والرد بالمثل، والتهكم الاجتماعي والسياسي والقلب والعكس، وضعف العقل⁽¹²⁾.

وتتنوع إلى ما يبكي ويضحك، ويبني ويهدم، ومنها ما يرفع ويخفض، وما يرضى ويغضب، وما يصيب ويخيب، وما يدني ويقصي، وما يُّقْبَلُ وما يُنْبَرُ وما يلذع وينفع، وما هو مقبول ومرفوض، وما هو مرغوب ومكروه، وما هو مطلوب ومردود⁽¹³⁾.

السخرية في الأدب العربي

والسخرية كفن هو أن يخرج الكاتب خاصيات من يسخر منه، ويكشف عن عيوبه ومساوئه، ويبررها، ويجلي غموضها مظهراً في ذلك روحه وانفعاله، ومضيفاً شعوره ووجدانه، وأحاسيسه ولمساته فتكون سخريته إبرازاً لبواطن الأشياء كما يراها هو وكما تنفذ من خلال شعوره مضيفاً إليها تجربته وانفعاله، ثم التنويع فيها، والابتكار في ضروبها⁽¹⁴⁾.

أساليب السخرية:

بعد أن حاولنا التعرف على السخرية وتفهمها وتمييزها عن أسلوب التعبير العادي، فإن هناك أساليب للسخرية تتمثل في الآتي:

1- الرد بالمثل:

وهو قائم على التبادل وكثيراً ما يستخدم للفكاهة والضحك لمجرد التسلية والسرد، عادة يكون أكثر سخرية، وأشدّ لذعاً، وأدعى إلى الضحك، وهو يتطلب حيوية الذكاء، وسرعة الخاطر، كالمراة التي سخرت من طول الجاحظ رداً على سخريته من طولها. وكالفرزدق الصبي الذي مر به الأخطل وقال له: أيسرك أن أكون أباك، فرد عليه في سرعة قائلاً: لا، ولكن يسرني أن تكون أمي ليأكل أبي من أطايبك⁽¹⁵⁾.

2- اللعب بالألفاظ:

هذا النوع يعتمد على الاشتراك المعنوي في اللفظ الواحد أو على الجنس والطباق، ومن أمثله ما دار بين معاوية وبين شريك بن الأعور، وكان دميماً حين قال له معاوية: أنك لدميم والجميل خير من الذميم، وأنك شريك وما لله شريك، وأنك للأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال شريك: أنك معاوية، وما معاوية إلا كلبة عوت واستعدت الكلاب، وأنك ابن صخر والسهل خير من الصخر، وأنك ابن حرب والسلم خير من الحرب، وأنك ابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟⁽¹⁶⁾

وبلاحظ أن الأسلوب مزدوج ويتداخل فيه اللعب بالألفاظ مع الرد بالمثل وهو في ظاهره يمثل نوعاً من المهارة في استخدام اللغة، فالرد بالمثل كلاماً أو عملاً منبه قوي للإنسان يلتزم جانب الصواب في حياته القائمة على العلاقات المتبادلة التي تتطلب احترام حق الآخرين.

3- اللعب بالمعاني:

ومن أنواعه الكناية، والتورية، والتعريض.

أ- الكناية: وهي التعبير بجملة أو جمل يراد بها معنى آخر مرتبط بالمعنى الأصلي، وقد يعبر بها عن فكرة المرادة بالألفاظ تؤدي صورة مضحكة، كالذي رد على صديقه حين سأله: ماذا ولاء الأمير، بقوله (ولأني قفاه)، وفي هذا التعبير سخرية من وجهين، سخرية بالأمير انتقاماً منه لأنه رده دون شيء، وسخرية من النفس للتعبير عن الحرمان والعودة خائباً، وفي هذا من التنفيس عن ذات المتكلم ما يخفف عنه الآم الشعور بالحرمان والخيبة⁽¹⁷⁾.

ب- التورية: وهي التعبير بلفظ يحتمل معنيين أحدهما بعيد وهو ما يريده المتكلم، والتورية من أهم بواعث الضحك، وأكثر أنواع الفكاهة شوعاً في الأدب الإنجليزي خاصة، وأساسها كما في الأدب العربي الاتحاد في اللفظ والاختلاف في المعنى، وقد يكون الاتحاد كاملاً أو في أكثر الحروف وقد تستغل في السخرية استغلالاً ناجحاً، كالأعرابي الذي كان يأكل مع أبي الأسود الدؤلي وكان يأكل لقمماً كبيرة، فسأله أبو الأسود ما اسمك؟ قال: لقمان، فقال له: صدق أهلك في تسميتك، أنت لقمان⁽¹⁸⁾.

ج- التعريض: وهو الكلام الذي لا يقصد به المتكلم معناه وإنما يقصد معنى آخر، وليس بين المعنيين تلازم.

ومنه أن (عمر بن العاص) قال لمعاوية رأيت البارحة في المنام كأن القيامة قد قامت ووضعت الموازين وأحضر الناس للحساب فنظرت إليك وأنت واقف قد أجمك العرق وبين يديك صحف كأمثال الجبال، فقال معاوية: فهل رأيت شيئاً من دنائير مصر؟⁽¹⁹⁾ وفي هذا الاتهام المتبادل ما كان يمكن أن يثير الحقد والكراهية لولا التعريض الذي صيغت فيه السخرية فبدت فكهة خفيفة على النفس.

ومن التعريض الساخر البعيد الأثر قول الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مخاطباً الكفار: ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُنَّ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽²⁰⁾.

السخرية في الأدب العربي

وهل هناك شك في هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وضلال الكافرين؟ إلا إذا كان الكفار أنفسهم يعاندون.

وفي هذا التجاهل تعريض واضح بغبائهم وعنادهم وتثبيت لضلالتهم بأسلوب ساخر يضع في صورة واحدة مقارنة غير مباشرة بين الهدى والضلال والإيمان والكفر. واللعب بالمعاني بألوانه الثلاثة التي ذكرناها وغيرها لها قرين لأسلوب الرمز الذي يشترك مع هذه الألوان وهو أن المعنى المراد يكون بعيداً، وإن كان في أسلوب اللعب بالمعاني متضمناً من اللفظ ما لا يصعب فهمه، وإن اختلط بغيره في حين أنه في السر موصي به، تقصده العبارة، وإن لم تتحدث عنه.

والرمز قرين اللعب بالمعاني أيضاً، ففي كلاهما يستخدم لحماية صاحبه من الوقوع تحت دائرة الإحباط، وإن كان الرمز أوسع مدى وأرحب ساحة، ويستطيع أن يطلق يد صاحبه بقدر ما تعطيه مواهبه وقد يروج نوعاً من القصص، إذا الطابع الخرافي والأسطوري، أو الذي يدور حول عالم الإنسان كالحيوان أو الطيور أو الحشرات، بينما هو في حقيقته يسخره الإنسان في صورة غير مباشرة إما لبيان تميز الحيوان عنه في بعض الصفات في فترة زمنية محددة، أو للتركيز على وجه من وجوه الشبه بينهما، وقد يكون المقصود ليس الإنسان بصفة عامة، وإنما إنسان معين تمنع المكانة أو السلطة التي يمتلكها من المساس به حتى بالكناية أو التورية أو التعريض.

د- القلب: إن يقلب المتكلم جواباً أو سؤالاً لسائل أو يأتي بعكس ما كان ينتظر أن يأتي به، أو بكلام مفاجئ غير متوقع، أو يقلب فكرة أو قصيدة ليسخر من صاحبها أو لتحويلها إلى غرض فكا هي ساخر من العيوب السائدة في المجتمع⁽²¹⁾.

4- الهزل يراد به الجد:

كقول أبي نواس:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرأ فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب⁽²²⁾

السخرية في الأدب العربي

فهي سخرية في صورة هزل بينما هو يريد وضع التميمي في وقت الزهو وافتخاره بنفسه في صورة يعافها أشرف الناس مما لا يجعل له حقاً في الفخر، وكان من خلال هذا الهزل جدية في إرادة وصم المهجو بالذم والقبح والعيب، وقد أحدث الشاعر قلب للجو العام الذي بدأه التميمي مفتخراً بنفسه فكان ختامه عكس ما أراد⁽²³⁾.

5- التبشير في موضع الإنذار أو الوعد في مقام الوعيد:

كقول الله تعالى: ﴿يَسِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مَغَاباً أَلِيماً﴾⁽²⁴⁾ فمثل هذا التعبير يحمل سخرية لاذعة، لأن الله تعالى مع توعد المنافقين بالعذاب الأليم، يسخر من توقعاتهم التي تحمل الوهم والحمق ومثله المدح في معرض الاستهزاء، كقوله تعالى: ﴿نُقِ إِكَّ أَتَ الْغَيْرُ الْكَرِيمِ﴾⁽²⁵⁾.

وقول ابن الرومي:

فيا له من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل⁽²⁶⁾

من هذا النوع إقرار المخطئ على خطئه كأنه لا يستحق المعارضة أو المناقشة، أو الاعتقاد أن خطأه لا يخفى على أحد حتى لو أقر عليه، أو كانت أحلامه من الضالة والغفلة بحيث لا تتسع للجدل فلا بأس من مجاراته، وليس كل ذلك إلا سخرية وازدراء واستهزاء به.

6- المبالغة:

هي من أساليب الفكاهة والسخرية التي تستخدم في النكت وتعمد على الإفراط في الوصف وتضخيم الصورة والمبالغة فيها.

يقول أحد الشعراء في هجاء شخص كرهه الرائحة:

تبكي السموات إذا دعا

وتستعيد الأرض من سجدته

إذا انتهى يوماً لحوم القطا

ضوعها في الجو من نكهته⁽²⁷⁾

وهذه الأساليب ليست وحدها وتقال فيه السخرية إنها كثيرة ومتعددة⁽²⁸⁾.

7- القلب وعكس المراد في الجواب:

دخل سفيان بن العاص⁽²⁹⁾، الكوفة⁽³⁰⁾ في يوم مطير، فإذا كناس فتح مرحاضاً ووقف على رأس البئر وهو يقول:

بلدة طيبة ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير

ثم قال لصاحبه: انزل، فأبى صاحبه، فنزل وهو يقول:

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من يطيق النزولاً⁽³¹⁾

قيل: البيت الأول في الإشادة ببلد جميلة في يوم مطير، وقيل في الإعجاب بروضتها وبغديرها، وشقاق ما بين هذا وما يراه القائل، وقيل الثاني في الاندفاع إلى الحرب عند جبن الأعداء، وإن كانوا أشاوس، وأين من هذا نزول القائل إلى ما نزل فيه.؟
كذلك قالت امرأة لـ(أشعب) هب لي خاتمك، قال: لماذا؟ قالت: لأذكرك به قال: اذكريني بالمنع⁽³²⁾.

وساوم أشعب رجلاً في قوس، فقال الرجل: أقل ثمن لها دينار، قال أشعب: والله لو أنك إذا رميت بها طائراً في السماء، فوقع مشوياً بين رغيقين، ما اشتريتها منك بدينار أبداً⁽³³⁾.

8- الهروب والتخلص من الجواب:

كان النعيان وهو صاحبي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مولعاً بالمزاج والدعابة، مر يوماً (بمخرمة)⁽³⁴⁾ بن نوفل الزهري وهو ضرير فقال: قدني حتى أبول، فأخذ بيده حتى إذا كان في مؤخرة المسجد، قال له، أجلس فجلس مخرمة ليبول فصاح الناس: يا أبا المسور، أنت في المسجد، فقال: من قادني؟ قالوا نعيان قال: لله علي أن أضربه بعصاي إن وجدته فبلغ ذلك نعيان فجاء يوماً إلى مخرمة، فقال: يا أبا المسور هل تريد نعيان؟ قال: نعم، فقال له، هو ذا يصلي، وأخذ بيده، وجاء به إلى عثمان بن عفان⁽³⁵⁾، وهو يصلي، فقال له: هذا نعيان، فعلاه، قالوا: نعيان، فقال: لن أعرض له بسوء أبداً، كذلك مر ابن أبي علقمة بمجلس جماعة من بني ناجية فركبا حمارة على وجهه، فضحكوا منه، فقال لهم: ما يضحكم؟ إنه رأى وجهاء قريش فسجد.

سأل رجل الشعبي⁽³⁶⁾: ماذا كان اسم امرأة إبليس؟
فقال الشعبي: ذاك زواج ما شهدناه⁽³⁷⁾.

ومن سخرياتهم أنه دخل اللصوص دار أبي سعيد، فأخذوا كل ما فيها، فلما خرجوا تبعهم وهو يحمل بعض ما تركوه، فقالوا له: إلى أين يا رجل؟ وماذا تريد؟ فقال: لم يبقوا لي شيء في داري، فخرجت وراءكم لأقيم بدراكم فضحكوا منه وردوا عليه متاعه⁽³⁸⁾.
سخریات ومزاح الأدباء والأعراب والمتندين وألوان من هذه السخرية وطرائفها:
وسوف نتناول أشهر الموضوعات التي دارت حولها السخرية:

1- العيوب الجسمية:

تتاول الأدب هذا العيب تتاولاً قائماً على المبالغة والتضخيم والإضحاك⁽³⁹⁾، كما أنه من أهم موضوعات السخر وأكثرها رواجاً لدى الكتّاب والشعراء⁽⁴⁰⁾، ولعل وصف ابن الرومي لأحدب يمثل لونا من هذا التصوير الذي تختلط فيه الدقة بالمبالغة، وهو يقول:
قصرت أخادعه وطال قذاله

فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة

وأحس ثانية لها فتجمعا⁽⁴¹⁾

كذلك دخول الخيال لتلوين الصورة بلون غريب، ويجسّم العيب تجسيمياً يفوق المعتاد، ويبدو ذلك في قول الشاعر دلالة على السمنة وتنفيراً من ضخامة الجسم:

ألا يا شبيهه الدب مالك معرضاً

وقد جعل، الرحمن طولك في العرض

وأقسم لو خرت من استك بيضة

لما انكسرت لقرب بعضك من بعض⁽⁴²⁾

والسخرية لا تتناول هنا العيب الجسيمي تتاولاً مجرداً وإلاّ أصبحت في موضع اللوم الأخلاقي الذي يفقدها حسن تأثيرها في النفس، ولكن بالدرجة الأولى هي تتناول مسؤولية صاحب العيب باعتبار أنه قد لا يصاب بهذا العيب إذا التزم الأسلوب الإنساني، فالأحدب على

السخرية في الأدب العربي

سبيل المثال هو المسؤول عن حالته التي أُصيب بها، لأنه لم يراع الوقوف أو الجلوس الصحيح⁽⁴³⁾.

وقال الجاحظ ساخراً من نفسه:

روى الجاحظ عن نفسه، ساخراً من قصره، ومن طول امرأة رآها في المعسكر، وكان على طعام، فأراد أن يمازح تلك المرأة فقال لها: أنزلي كلي معنا، قالت المرأة: أصعد أنت حتى ترى الدنيا⁽⁴⁴⁾.

وقال عن نفسه ذات مرة: إنه وصف للخليفة المتوكل أحد أولاده، فلما رأى الخليفة صورته استبشعها، فصرفه⁽⁴⁵⁾.

2- السخرية من العيوب الخلقية والنفسية:

أ- البخل:

كثر البخلاء في عصر الجاحظ، وغاص الجاحظ في باطن البخل وعرف سريرته، لأنه مولع بهذا النوع من البحث ولقد أفرد للبخل كتاباً خاصاً وهو "البخلاء" وجعل الدرهم عند البخل يساوي دية مسلم، إذ: الدرهم عشرة عشرة ولن العشرة عشر المائة، وأن المائة عشر الألف، وأن الألف عشر العشرة آلاف، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم⁽⁴⁶⁾. وبروي صورة ساخرة لاذعة لفضح الشح، وكيف يبلغ بصاحبه مداه، يقول: كان عندنا رجل في بني أسد إذا صعد ابن الأكارى إلى نخلة له تلتقط رطباً، وملاً فاه ماء، فسخرُوا منه، وقالوا له: إنه يشربه، ويأكل شيئاً على النخلة، فإذا أراد أن ينزل بال في يده، ثم أمسكه في فيه، والرطب أهون على أولاد الأكرة، وغير الأكرة من أن يحتمل فيه أحد شطر هذا المكروه ولا بعضه، قال: فكان يملأ فاه بماء أصفر، أو أحمر، أو أخضر لكيلا يقدر على مثله في رؤوس النخل⁽⁴⁷⁾.

وقد روي أيضاً أن الرشيد قال للجَمَّار: كيف مائدة محمد بن يحيى البرمكي؟ فقال الجمار: شبر في شبر، وصحفة من قشر الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة وبين اللون واللون فترة نبي، قال الرشيد: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون⁽⁴⁸⁾.

السخرية في الأدب العربي

فالسخرية هنا من صغر المائدة ورداءة الصحفة وخشونتها وتباعدها وتباعد ما بين الأرغفة، ويدعي سخرية أنها مائدة لا تأكل منها إلا الملائكة، وهم كما نعرف لا يأكلون ولا يشربون⁽⁴⁹⁾.

ب- الغباء:

هو من العيوب التي يمكن أن نعتبرها نفسية لأنه لا يدخل في العيوب الجسدية، وهو صورة من صور الذهول عن الحياة والجمود أمام عجلتها المرنة التي لا تتوقف والغباء صفة توقع الإنسان في حرج؛ لذلك جعلها الناس مادة للفكاهة والسخرية⁽⁵⁰⁾ فعلى سبيل المثال:

1- دخل رجل على الشعبي، وامرأته معه في البيت، فقال: أيكما الشعبي؟ قال الشعبي: هذه وأشار إلى امرأته، فسخر منه لغبائه، لأنه لم يفرق بين الشعبي وامرأته⁽⁵¹⁾.

2- وأيضاً جاء رجل إلى بشار بن برد، فسأله على منزل رجل ذكره له، فجعل بشار يصفه له، ويفهمه، فلا يفهم، فأخذه بشار بيده، ومشى به يقوده إلى أن بلغ منزل الرجل وهو يقول:

عمى يقود بصيراً لا أباكم
قد ضل من كانت العميان تهديه⁽⁵²⁾
فلما وصل إلى منزل الرجل، قال له: هذا منزله يا أعمى⁽⁵³⁾.

ج- الجور في الحكم:

ومن ذلك ما قاله المتوكل الليثي في الشعبي القاضي حين جاءته امرأة جميلة الوجه تختصم إليه زوجها، وحكم لها على زوجها وقال المتوكل مصوراً علة هذا الموقف ومجسماً التأثير الكبير في هذه المرأة الجميلة في القاضي:

رفق الطرف إليها	فتن الشعبي لما
ولم يقضي عليها	فقضى جور على الخصم
نحرها أو ساعديها	كيف لو أبصر منها
ساجداً بين يديها ⁽⁵⁴⁾	لصبا حتى تراه

د - النفاق:

قال الجاحظ عن قاسم التمار حين أقبل على أصحاب له وهم يشربون النبيذ، وذلك بعد العصر بساعة، فقال لبعضهم: قم صل فانتك الصلاة ثم أمسك عنه ساعة، ثم قال لآخر: قم صل، ويك فقد ذهب الوقت، فلما أكثر عليهم في ذلك، وهو جالس لا يقوم يصلي، قال له واحد منهم: أنت لم لا تصلي؟ فأقبل عليه، فقال: ليس، والله تعرفون أصلي في هذا الوقت: وأي شيء أصلك؟ قال: لا تصلي، لأن هذه المغرب قد جاءت⁽⁵⁵⁾.

هـ - الحذقة:

سخرت منها العرب لأن فيها غروراً وإدعاء ومبالغة في التظاهر دخل أبو علقمة النحوي على أيمن الطبيب، فقال له: أني أكلت من لحوم هذه الجواز فلسئت ملسأة، فأصابني وجع بين الوابلة إلى دابة العنق فلم يزل ينمي حتى خالط لمخلب والامت له الشراسيف، فهل عندك دواء؟ فقال له الطبيب: خذ حرقفا وسلقفا وشرفقا، ثم أهرقه ورققه وأغسله بماء مروث واشربه بماء الماء فقال أبو علقمة: أعد ويحك فأني لم أفهم منك، فقال له الطبيب: لمن الله أقلنا إلهاماً لصاحبه، وهل فهمت منك شيئاً ما قلت⁽⁵⁶⁾.

و - البلادة والإهمال:

وهذا المثال هو في البلادة والإهمال في أداء الواجب، وهنا يقول الجاحظ: "حدثتني امرأة تعرف الأمور، قالت: كان في الحي مأتماً اجتمع فيه عجائز الحي، فلما رأين أن أهل المأتم قد أقمن المناحة، واعتزلن وتحدثن فيبينما هن حديثهن، إذ ذكرن بر الأبناء بالأمهات، وإنفاقهن عليهن، وذكرت كل واحدة منهن ما يوليها ابنها فقالت واحدة منهن: وأم فيلويه، ساكنة، وكانت امرأة سالحة وابنها يظهر النسك، ويدين بالبخل، وله حانوت في مقبرة بني حصن يبيع فيها الأسقاط، قالت: فأقبلت على أم فيلوية، قالت لها: مالك لا تحدثين معنا عن ابنك كما يتحدثن؟ وكيف صنع فيلوية في بينك وبينه؟ قالت: كان يجري علي في كل أضحى درهماً، ثم قالت: وقد قطعه أيضاً: فقالت لها المرأة: وما كان يجري عليك إلا درهماً؟ قالت: ما كان يجري علي إلا ذاك، وربما أدخل أضحى في أضحى، فقالت: فقلت: يا أم

السخرية في الأدب العربي

فيلوية، وكيف يدخل أضحى في أضحى؟ قد يقول الناس: إن فلان أدخل شهراً في شهر، ويوماً في يوم، فأما أضحى في أضحى، فهذا شيء لابنك، لا يشركه فيه أحد" (57).

ز - الجهل والغفلة:

إن الجاهل والغافل يسيران ضد المنطق وواقع الحياة لا يعرفان من أمرها شيئاً، ولا يفرقان بين الضار والنافع، فأحوالهم تدعو إلى العجب، وتدفع إلى السخر، فمنهم من يعتقد أن الفأرة من خلق الله، والنسور من خلق الشيطان، ويسخر الجاحظ من هؤلاء ويقول: إذ قيل له كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة، تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت، والقبائل الكثيرة، والمد العظام، والأرباض الواسعة بما فيها من الناس، والحيوان، والوثائق، والشروط، وتقرض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بزرة فتدفع للحاف غربالاً، وتقرض الجرب، وأوكية الأسقيفة والأزقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها، وتقع في الآنية وفي البئر فتموت فيه وتحوج الناس إلى مؤيد عظام، وربما عضت رجل النائم، وربما قتلت الإنسان بعضتها، والفأر بخرسان ربما قطعت أذن الرجل وجرذان أنطاكية تعجز عنها السنانير، وقد جلا عنها قوم، وكرهها آخرون لمكان جردانها، وهي التي فجرت المسناة السد، في كان ذلك بسبب الحسر (نضوب الماء) بأرض سبأ وهي المضروب بالمثل، وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب، وتقتل النخلة والغيلة، وتخرب الضيعة، وتأتي على أزمة الركاب والخطم (58). وتهكم من جهل القصاص، فقال: قلل أبو كعب القاص من قصصه: كان اسم الذئب الذي أكل "يوسف" هجوناً، فقالوا له: فإن يوسف لم يأكله الذئب، قال: فهو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف (59).

وقال الجاحظ لبعض المعلمين، مالي لا أرى لك عصا؟ قال: لا احتاج إليها، إنما أقول لمن يرفع صوته "أمه زانية" فيرفعون أصواتهم، وهذا أبلغ من العصاة وأسلم (60).

وقال أيضاً ساخراً: قلت لمعلم، لم تضرب غلمانك من غير جرم؟ قال: جرمهم أعظم الأجرام، يدعون لي أن أحج، وإن حججت تفرقوا في المكاتب، فمتى أحج؟ أنا مجنون (61).

3- السخرية من السياسة:

كما لعبت السخرية في ميدان السياسة دوراً خطيراً، بما تملكه من تأثير وقدرته على لفت الأنظار وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة في نظم الحكم أو أخلاق بعض الساسة

السخرية في الأدب العربي

وانحرافاتهم، وتستطيع أن تكون رأياً عاماً أو تقوم بتحريك الرأي العام نحو هدف معين، ومن التهمك السياسي قول بشار بن برد وهو يسخر من الخليفة المهدي وضياع الأمر من يده إلى يعقوب بن داود⁽⁶²⁾:

بني أمية هبوا طال نومكم
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا

إن الخليفة يعقوب بن داود
خليفة الله بين الرق والعود

ولما ضاعت الخلافة العباسية وتنازع الوزراء السلطة، حتى أصبحت الوزارة منصباً محفوفاً بالأخطار لا يطمأن إليه ولا يأمن صاحبه تقلبات الزمن، سخر الشعراء من الوزراء ومن اضطراب الحياة حولهم، وهذا أحمد بن إسحاق بن البهلول يسخر من تولى بن الفرات الوزارة للمرة الثالثة في قوله:

قل لهذا الوزير قول لحق
وقد تقلدتها ثلاثاً ثلاثاً

بثه النصيح أيما أيثا
وطلاق البنات عند الثلاث

الشاعر يذكر الوزير بأن هذه ولايته الأخيرة في الوزارة، وكأنه يحذره أن يقع فيما يضعه تحت طائلة العقاب بالطرده، شأنه شأن المرأة التي لم يعد بينها وبين الخروج على بيت زوجها إلا خطوة واحدة ولا سبيل بعدها إلى العودة.

بالفعل لم يمض على ابن الفرات وقت طويل حتى عزل عن الوزارة⁽⁶³⁾، كذلك لم يسلم أي وزير خاصة الذي يتقلد الخلافة عدة مرات متوالية من لسان الساخرين، فهذا بن تقالة يتولى الوزارة مرات في عهود الخليفة المقتدر بالله، والراضي بالله، والظاهر بالله، وكان يكرم ويعظم نفوذه ثم يُعزل، وفي عهد الراضي بالله طرد وقطعت بيمينه ثم عاد إلى الوزارة، حتى حسب الناس إنه لن يعزل منها بعد ذلك، ورغم هذا فقد قال بعضهم:

وقالوا العزل للوزراء حيض
ولكن الوزير أبا علي

لجاه الله من أمر بغيض
من اللائي يئسن من المحييض⁽⁶⁴⁾

وسخر الشعراء والأدباء من العيوب الاجتماعية المتفشية في المجتمعات والتي تهدد بالتخلف والجمود مسببة الضيق والسخط للأفراد والجماعات ولو أنهم حبسوا هذا الضيق وانطوا على السخط دون أن يعيروا عن أنفسهم لأضر بهم ذلك كثيراً ولعجزوا عن حماية

السخرية في الأدب العربي

المجتمع، والمحافظة عليه وضمان تقدمه والسخرية في هذه الحالة تعبير عن النفس وعقاب لمن يجترئون على المجتمع ومقدساته وعوامل بقاءه، ووضع مقاييس للذوق العام تأديب المنحرفين ولصالحهم، حين لا يكون انحرافهم هنا داخلاً تحت قانون من قوانين الردع والعقاب والسخرية، هنا تحتاج إلى دراية بالمجتمع ودراسة بأحواله ومعرفة بكل تصوراته، وإلى ذوق رفيع مرهف وقدرة على الصياغة الأولية بمهارة وذكاء وتعامل جيد مع هذا النوع من النقد، أي النقد الاجتماعي بأسلوب ساخر يخلص النفس من متاعبها وعقدها⁽⁶⁵⁾.

الخاتمة:

- من خلال ما تقدم حول اللوحة السريعة لفن السخرية في الأدب العربي تبين أنها أسلوب أدبي رفيع يكشف عن أنماط مختلفة من الأساليب الإنسانية.
- كما أنها فن يقوم على الضحك والاستهزاء، وشكل من أشكال التهكم والازدراء، والسخط والتبرم على سلبيات المجتمع.
- للسخرية أساليب عدة، منها الرد بالمثل، واللعب بالألفاظ والمعاني - كالكناية والتورية والتعريض، والهزل الذي يراد به الجد، والهروب والتخلص من الجواب.
- تناولت السخرية كذلك موضوعات عدة كالعيوب الجسمية والخلقية والنفسية مثل - البخل، والغباء، والنفاق، والجور في الحكم، والحذقة، والبلادة، والجهل.

الهوامش:

- (1) مختار الصحاح، أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، 1986، مج1، ص122.
- (2) سورة الزخرف، الآية 32.
- (3) مختار الصحاح، مرجع سابق، مج1، ص122.
- (4) سورة التوبة، الآية 79.
- (5) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، مج4، ص353.
- (6) السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحلیم حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1988، ص64.

- (7) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهيب، ص 227.
- (8) الفكاهة والضحك، شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، الكويت، 2003، ص52.
- (9) المرجع نفسه، ص52.
- (10) السخرية في رواية بيبستر، عبد الفتاح عوض، ط1، 2001، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 41ص.
- (11) ينظر السخرية في أدب المازني، حامد عبده الهوال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص 15-18.
- (12) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص65.
- (13) ينظر أدباء الفكر الساخر، صديق عبد الفتاح، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993، ص51.
- (14) المرجع نفسه، ص7.
- (15) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص41.
- (16) المرجع نفسه، ص42.
- (17) نفسه، ص 42.
- (18) نفسه، ص 43.
- (19) نفسه، ص 44.
- (20) سورة سبا، الآية ص 24.
- (21) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 46.
- (22) ديوان أبي نواس، تحقيق إيفالد قاغنز، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 2003م، المجلد الثاني، ص 20.
- (23) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 47.
- (24) سورة النساء، الآية ص 138.
- (25) سورة الدخان، الآية ص 49.

- (26) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 48.
- (27) المرجع نفسه، ص 49.
- (28) نفسه، ص 49.
- (29) سفيان بن العاص، بن سعيد بن العاص بن أمية سري من سراة المدينة المشهورين ولي إمارة الحرمين في خلافة معاوية حتى توفي سنة 59هـ.
- (30) الكوفة: أسسها العرب سنة 17هـ، عندما ضاقوا بالبصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها، واتخذها علي بن أبي طالب فيما بعد حاضرة للخلافة بدلاً من المدينة المنورة.
- (31) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 75.
- (32) المرجع نفسه، ص 75.
- (33) نفسه، ص 75.
- (34) مخزومة بن نوفل الزهري، ذكره المرزباني فرد نسبه، ثم قال: إنه كوفي إسلامي معروف ولم يزد.
- (35) الخليفة الثالث (23-35هـ)، واحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضي.
- (36) الشعبي القاضي: أبو عمر وعامر بن شراميل بن معبد الشعبي الإمام، مضرب المثل في العلم واليقين والفهم والتقوى.
- (37) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 88.
- (38) مرجع نفسه، ص 88.
- (39) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 50.
- (40) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 144.
- (41) ديوان ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج الرومي، تحقيق: أحمد حسن، دار الكتب العلمية، ط3، 2002، ص 72.
- (42) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 50.

- (43) ينظر السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 50.
- (44) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 145.
- (45) المرجع نفسه، ص 111.
- (46) نفسه، ص 148.
- (47) نفسه، ص 148 - 149.
- (48) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 53.
- (49) المرجع نفسه، ص 53 - 54.
- (50) نفسه ، ص 56.
- (51) نفسه ، ص 60.
- (52) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 79.
- (53) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 61.
- (54) مرجع نفسه، ص 61.
- (55) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 154.
- (56) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 62.
- (57) السخرية في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص 163.
- (58) المرجع نفسه، ص 173.
- (59) نفسه، ص 174.
- (60) نفسه، ص 175.
- (61) نفسه، ص 175.
- (62) السخرية في أدب المازني، مرجع سابق، ص 67.
- (63) المرجع نفسه، ص 68.
- (64) نفسه، ص 69.
- (65) نفسه، ص 69.